ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

المدن الصحراوية في كتابات الجغرافيين

بسكرة أنموذجا

Saharian cities in the writings of Geographers
Biskra As a model

خلوط أسماء، طالبة دكتوراه تخصص: تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي

مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة تيارت
asmahistoir1993@gmail.com

بإشراف: الأستاذ الدكتور عبد الحق شرف، جامعة تيارت

تاريخ الإرسال: 2019/09/25 تاريخ القبول: 2019/12/11 تاريخ النشر: 2020/01/31

الملخص:

تعتبر الصحراء الجزائرية من بين أكثر المناطق أهمية في بلاد المغرب الاسلامي، وذلك بفضل الموقع الاستراتيجي الذي تحتله، باعتبارها همزة وصل بين المغرب الاسلامي وبلاد السودان الغربي، ومسلكا تجاريا ومعبرا للقوافل، وهذا راجع إلى اتساع رقعتها وانتشار المدن بها، ولعل من بين أكثر المدن الصحراوية أهمية في بلاد المغرب الاسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة مدينة بسكرة، والتي هي من أقدم وأجلّ المدن الصحراوية في المغرب الأوسط، وقد حظيت هذه المدينة بقسط وفير من كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة، خاصة المغاربة والأندلسيين منهم، لما لها من موقع متميّز ودور بارز في شتى المجالات خاصة في المجال الاجتماعي والاقتصادي والديني.

الكلمات المفتاحية: الصحراء الجزائرية؛ المغرب الاسلامي؛ المغرب الأوسط؛ مدينة بسكرة.

Abstract: The Algerian Sahara is among the most important territories in the Islamic Maghreb, regarding to its strategic location as a point linking

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

the Islamic Maghreb and the countries of Western Sudan, with trade routes and caravans. There was a lot of cities wich emerged in this wide territory, and perhaps one of the most important Saharian cities in the Islamic Maghreb is the city of Biskra, which is one of the oldest and longest Saharan cities in the Maghreb, it has been a great interest in city writings of historians, geographers and travelers, especially Maghribans and Andalusians, because of its privileged location and role in various sectors especially in the social ,Economic and religious.

Keyword : Algerian Sahara ; Islamic Maghreb ; Middle Maghreb ; Biskra.

مقدمة:

حظيت المدن الصحراوية في المغرب الاسلامي بموقع استراتيجي هام وامتداد تاريخي مهم لازالت آثاره باقية إلى اليوم، مما جعلها همزة وصل ومركز استقطاب اجتماعي وسياسي وديني واقتصادي أفرزت مجالا واسعا للتعايش والانتاج الحضاري على مر العصور، كما شكلت هذه المدن مسلكا تجاريا ومعبرا للقوافل خلال العصر الوسيط، ومن بين المدن التي كانت المركز الرئيس بالمغرب الأوسط مدينة بسكرة، إذ لعبت دورا هاما في النشاط الاقتصادي والتعليمي، لما توفرت عليه من مكونات عمرانية وبشرية مختلفة خولت لها أن تفرض وجودها في الأسطوغرافيا التاريخية؛ لاسيما مصادر الرحلة المغربية والأندلسية فضلا عن المدونات الاستشراقية.

أما الإشكالية المطروحة فتبحث في حقيقة النسيج العمراني والفضاء الجغرافي وفق تخطيط معين وليد الظروف التاريخية التي كيفتها بالمغرب الأوسط، فإذا كانت مدينة بسكرة هي وعاء اجتماعي وبناء حضاري استوجب على الجغرافيين والرحالة إيفاؤها حقها من الكتابة. فكيف تناولت هاته المؤلفات الجغرافية مدينة بسكرة تاريخيا وجغرافيا؟ وما هي أهم مكوناتها الإثنولوجية؟ وماهي أبرز مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية بها؟

1-الموقع:

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

تحتلّ مدينة بسكرة موقعا جغرافيا هاما، حيث شكّل حلقة وصل بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، وقد جعلها موقعها معقلا لأبرز الحضارات وأعرقها، وموطنا عمّر به عديد الشعوب والأجناس على اختلاف أصولهم، بدء من العصور البدائية القديمة، وصولا إلى الفتوحات الاسلامية، فتركوا في المكان مآثرا وشواهدا كانت ولاتزال تعبّر عن عراقة المنطقة في التاريخ وتميزها في شتّى المجالات خاصة في العلم والمعرفة والاقتصاد.

تقع بسكرة في الجهة الجنوبية الشرقية من المغرب الأوسط، على ارتفاع 122م من سطح البحر، يسودها مناخ شبه جاف، يتميز بشتاء بارد وجاف وصيف حار وجاف، ويتباين المدى الحراري بين الليل والنهار، أما نسبة تساقط الأمطار فهي ضعيفة على مدار السنة عدا فصل الخريف، خصوصا في بدايته، إذ تشهد المنطقة تساقط كميات معتبرة وهائلة من الأمطار[1].

تتميز بسكرة بتضاريس متنوعة، فمن ناحية الشمال تتمركز الجبال والتي تمثل السفوح الجنوبية للأوراس وجبال الزاب[2]، أما السهول فتمتد من الشرق إلى الغرب، حيث تتميز بتربة عميقة وخصبة، أهمها سهول لوطاية والدوسن وطولقة[3] وسيدي عقبة، وبالنسبة للهضاب فتشمل الجهة الغربية منها، أما من الناحية الجنوبية الغربية توجد المنخفضات أهمها شط ملغيغ[4].

2.أصل التسمية:

إنّ مرور بسكرة بمختلف العصور جعلها تذكر في الكتب والمؤلفات بالعديد من الأسماء، أشهرها «فسيرة» (Vescera) الرومانية الأصل، والتي تعني الموقع التجاري نظرا لتقاطع طرق العبور بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، وهناك من يرى أن التسمية الأولى لها هي بيسينام (AD Pisciname)، و هي كذلك رومانية وتعني المنبع المعدني نسبة إلى حمام الصالحين، إلا أن جيزل يبدي أقصى التحفظ فيما إذا كانت «فيسيرة» قد أخذت تسميتها من

1- «بسكرة أسوار من حضارة»، الجزائر: منشورات وزارة الثقافة، 2013.

2- وهو كورة عظيمة بأرض المغرب، عليها بلاد واسعة وقرى متواطئة، ومن أشهر مدنها المسيلة ونقاوس وطبنة وبسكرة وتهودة وغيرها؛ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، ج3، بيروت: دار صادر، 1977، ص 124 ؛ محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ط2، 1984 ، ص 281.

3- من بلاد الزاب بجوفيّ بنطيوس، وهي ثلاث مدن كلها عليها أسوار وخنادق؛ الحميري، المصدر نفسه، ص ص 400-401.

4- عبد القادر بومعزة، بسكرة في عيون الرحالة الغربيين، ج1، بسكرة-الجزائر: دار علي بن زيد، ط1، 2016، ص 25.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

بيسينام[5]، ومنهم من يرجح أن تسمية «فيسكرة» (Veskra) كلمة ذات أصل فينيقي، وتعني مستودع الأسلحة، مما يجعلها حقا مركزا حربيا وقاعدة للتوغل الاستيطاني الروماني في منطقة الزاب[6]، فمن بيسينام إلى فيسيرة لتتحول إلى بسكرة مع الفتوحات الاسلامية.

3-الوصف الجغرافي والعمراني لبسكرة في المصادر الجغرافية:

تتميز بسكرة بموقع استراتيجي هام، حيث تعتبر بوابة الصحراء ومعبرا تجاريا هاما للقوافل، فضلا عن ماضيها الضارب بجذوره في أعماق التاريخ، وكذا احتوائها على موارد وثروات طبيعية هامة، كل هذا جعلها محل اهتمام جغرافيّي العصر الوسيط، حيث تزودنا كتاباتهم بمعلومات بالغة الأهمية عن تاريخ المنطقة وعن الأحوال السياسية والاجتماعية والحضارية والأثرية والجغرافية، التي لا يمكن لأي باحث في تاريخ منطقة الزاب الاستغناء عنها.

فمدينة بسكرة عريقة في القدم، أسست أيام الاحتلال الروماني لبلاد المغرب[7]، وخربت بعد ذلك، ثم أعيد بناؤها بعد الفتح الاسلامي[8]، ومن بين الجغرافيين الأوائل الذين كتبوا عن المنطقة الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري-وهو من جغرافيّي القرن الخامس للهجرة- الذي وصفها بوصف شامل ومفصل، حيث يذكر أن بسكرة كورة فيها مدن كثيرة قاعدتها بسكرة، ثم يصف عمرانها فيقول: «وهي مدينة مسورة عليها خندق، وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات، وحواليها بساتين كثيرة، كما تحيط بها أرباض خارجة عن الخندق المذكور، ولبسكرة أبواب هي باب المقبرة وباب الحمّام وباب ثالث، كما توجد بالمدينة آبار كثيرة عذبة، ويوجد داخل المدينة كذلك جنان يدخل إليها الماء من النهر، ثم يذكر عددا من مدنها وهي مدينة جمونة وطولقة ومدينة مليلى ومدينة بنطيوس[9]»[10].

5- عبد القادر بومعزة، المرجع السابق، ص ص 27-28.

6-«بسكرة أسوار من الحضارة»، من منشورات وزارة الثقافة، 2013.

7- مارمول كربخال، إفريقيا، ج3، تر: محمد حجي و آخرون، الرباط-المغرب: دار المعرفة، 1989، ص 168.

8- الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي وآخرون، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط2، 1983، ص 138.

9- وهي مدينة من بنيان الأول، وتوجد على مسيرة مرحلة من بسكرة في اتجاه الجنوب الغربي، وهي تابعة لبسكرة. أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تق وتح وتع: حماه الله ولد السالم، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2013، ص 137. صالح بن قربة، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2007، ص 244.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

أما الشريف الادريسي -وهو من جغرافيّي القرن السادس للهجرة- فيتحدث عن بسكرة باختصار، فيصفها بالحصن المنيع، وأنه في كدية تراب عال وبه سوق وعمارة، وبه أيضا من التمر كل غريبة وطريفة[11]، في حين نجد صاحب كتاب الاستبصار –وهو أيضا من جغرافيّي القرن السادس للهجرة- يصف بسكرة بوصف شامل، ويبدوا أنه أخذ أغلب معلوماته عن البكري، حيث يقول أن: «بسكرة مدينة كبيرة، وحواليها حصون كثيرة وقرى عامرة وهي قاعدتها»[12]، إذن فمدينة بسكرة قد أخذت في النمو والتوسع والازدهار إلى أن أصبحت في القرن الخامس والسادس للهجرة من كبريات المدن الصحراوية بالمغرب الأوسط، وكورة تتبعها مدن وحصون وقرى كثيرة، ولعل هذا النمو والتطور راجع إلى الازدهار الاقتصادي الذي شهدته المنطقة بعد القرون الأولى التي أعقبت الفتح الاسلامي.

ويذكر ياقوت الحموي –وهو من جغرافيي القرن السابع للهجرة- أنّ بسكرة بلد من نواحي الزاب، ويحدد المسافة بينها وبين المدن الهامة القريبة منها كقلعة بني حماد[13] التي تفصلها عنها مرحلتان، وطبنة التي تفصلها عنها مرحلة، ثم يصفها بأنها مدينة مسورة ذات أسواق وحمامات[14]، ويجعلها ابن سعيد المغربي –وهو كذلك من جغرافيي القرن السابع للهجرة- عند أربع وعشرين درجة وخمس وعشرين دقيقة من حيث الطول، والعرض سبع وعشرين درجة ونصف، كما يزودنا بمعلومات أخرى عن المدينة حيث يذكر أنها قاعدة بلاد الزاب، وأنها محدثة بناها العبيديون على نهر سحر (سهر)[15]، وكما سبق وذكرنا فالمدينة من المدن الأولية القديمة، وربما قد جدّدها العبيديون باعتبارها من مدنهم الهامة. أما الجغرافي المغربي محمد بن عبد المنعم الحميري فوصف بسكرة وصفا مفصلا، وقد أخذ هو الآخر أغلب معلوماته عن البكري، فيذكر أن بسكرة هي قاعدة بلاد الزاب، وعليها سور وخنادق، وبها جامع ومساجد كثيرة، وحواليها بساتين

10- البكري، المصدر نفسه، ص ص 136-137.

11- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الشريف الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بور سعيد-مصر: مكتبة الثقافة الدينية، ص 264 .

12- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تع: سعد زغلول عبد الحميد، بغداد-العراق: دار الشؤون الثقافية العامة، ص 173.

13-وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة، بناها حماد بن بلكين، وتسمى أيضا قلعة أبي الطويل، ثم تطورت لتصبح من أكثر البلاد قطرا وأكثرها خلقا. البكري، المصدر السابق، ص 134؛ الادريسي، المصدر نفسه، ص 255.

14- ياقوت الحموي، المصدر السابق، م1، ص 422.

15- أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، الجغرافيا، تح و تع: إسماعيل العربي، بيروت: المكتب التجاري للطباع و النشر والتوزيع، ط1، 1970، ص 160.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

كثيرة فيها أصناف الثمار، وبها غابة نخيل كبيرة مقدار ستة أميال، فيها أجناس مختلفة من التمر[16]، في حين يجعلها الجغرافي المشرقي أبو الفدا من بلاد الجريد[17] قبالة المغرب الأوسط[18]، ونفس المعلومات نجدها عند القلقشندي الذي اقتبس ما ذكره ابن سعيد بدون إضافة[19].

4-الاطار البشري:

تناوبت على منطقة بسكرة أمم كثيرة وشعوب مختلفة، بدءا من العصور الحجرية، وصولا إلى الفتح الاسلامي، ومن بين هذه الشعوب البربر والفينيقيون والرومان والعرب والزنوج...، ولعل أهم الشعوب التي سكنت المنطقة هم البربر و العرب.

1.4.البربر:

البربر هم سكان المغرب القديم، الذين ملؤوا البسائط والجبال، يتخذون البيوت من الحجارة والطين والخوص والشجر، ومن الشعر والوبر، ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف باعتبارهم شعوبا بدوية حرفتها الرعي، ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها، وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم (البربر)، ويجمع علماء النسب أنّ البربر ينتسبون إلى جذمين عظيمين هما برنس ومادغيس، ويلقب مادغيس بالأبتر فلذلك يقال لعقبه البتر، ويقال لأبناء برنس البرانس، فالبرانس عند النسابة سبعة فروع هي: أزداجة، ومصمودة، وأوربة، وعجيسة، وكتامة، وصنهاجة، وأوريغة، وأضيفَ معهم لمطة وهسكورة وگزولة، أما البتر فتجمعهم أربع فروع هي: أداسة ونفوسة وضرية وبنو لوّا الأكبر، ومنهم تفرعت بطون كثيرة، كهوارة ونفزاوة ولواتة...[20]، ويذكر ابن خرداذبة أن هؤلاء البربر كرهوا نزول المدن بسبب الروم والأفارق، فنزلوا الجبال والرمال، فعادت المدائن رومية حتى افتتحها المسلمون[21].

16- الحميري، المصدر السابق، ص ص 113-114.

17- وهي مدن كثيرة وأقطار واسعة وعمائر متصلة، كثيرة الخصب والتمر والزيتون والفواكه وجميع الخيرات، وهي آخر بلاد إفريقية على طرف الصحراء، وسميت ببلاد الجريد لكثرة النخيل بها. مجهول، الاستبصار، ص 150.

18- عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر أبو الفدا، تقويم البلدان، بيروت: دار صادر، ص 138.

19- إسماعيل العربي، المدن المغربية، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 185.

20- عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، مر: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 2000، ص ص 116-119.

21- ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن: مطبع بريل، 1302، ص ص 91-92.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وعند دخول العرب الفاتحين إلى إقليم الزاب كانت قبيلة لواتة هي المسيطرة على المنطقة، باعتبارها من أعظم بطون البربر البتر، وأكثرها انتشارا في المنطقة، حيث يذكر ابن خلدون أنه كان منهم في جبل أوراس وضواحيه أمة عظيمة، ويدهم هي العالية على باقي القبائل الأخرى، حيث ناهز خيالتهم ألفا، وتجاوز رجالاتهم العدّة، فكانت الدول تستكفي بهم في جباية من تحت أيديهم بجبل أوراس من القبائل الغارمة، فيحسنون الغناء والكفاية، وكان من أكثر فروع لواتة حظوة وسيطرة بنو زنجان وبنو باديس وسدراتة ومزّاتة... الذين كانوا بدوا ظواعنا في المنطقة[22]، ويذكر البكري أنه يوجد حول بسكرة: «قبائل البربر سدراتة وبنو مغراوة أهل بيت بني خرز وبنو يزمرتي»[23]ومن خلال ما ذكرنا يتضح أن القبائل البربرية التي كانت تقطن بسكرة وضواحيها هي قبائل من البربر البتر وعلى رأسها سدراتة ومزاتة ومغراوة.

2.4.العرب:

كان منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، بداية تحول عميق في البنية الاجتماعية المغاربية عامة، شمل مختلف مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية واللغوية والجنسية والدينية، نتيجة الهجرات المتدفقة نحو المغرب والتي عرفت بهجرة بني هلال، الذين بدأوا يستقرون في بلاد المغرب الاسلامي استقرار البدو، شيئا فشيئا، طوعا وكرها، رغبة ورهبة[24].

تعتبر منطقة الزاب وبسكرة وجبل أوراس البوابة التي دخلت منها هذه القبائل إلى المغرب الأوسط، حيث استقر عدد من بطون بني هلال وسليم في منطقة بسكرة وما جاورها، فاستقرت بها بطون من الأثبج التي كانت أوفر الهلاليين عددا وأكثرها بطونا، وكان منهم الضحاك وعياض ودريد وكرفة، حيث كانت مواطن دريد جبل أوراس من شرقيّه، كما نزله منهم كرفة الذين كانوا

22- سعيد دحماني، تاريخ الجزائر في القرون الوسطى من كتاب العبر لابن خلدون، عنابة-الجزائر: منشورات بونة للبحوث و الدراسات، 2011، ص ص 244-245.

23- البكري، المصدر السابق، ص 137.

24- عزي بوخالفة، المهاجرون الهلاليون بين أحكام المؤرخين و شظايا الذاكرة الشعبية، الجزائر: منشورات وزارة الثقافة، ط1، 2013، ص 17 .

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ظواعنا في تخوم الزاب، وكذلك الحدلجة الذين استقروا بجبل أوراس مما يلي زاب تهودا[25]، إضافة إلى بنو محمد والمراونة وأولاد نابت الذين كانوا كذلك ظواعنا جائلة في القفار، وربما يستعملهم صاحب الزاب في تصاريف أمره من عسكر وإخفار، وأما الضحاك من الأثبج فكانوا بطونا كثيرة، انتشرت في كل المغرب الأوسط والأقصى وسجلماسة[26]، لكن كان مركزهم الزاب حتى غلب عليهم الدواودة -وهم أبناء دوّاد بن مرداس بن رياح- وأصاروهم في جملتهم، ويذكر ابن خلدون أن هذا الفرع من الأثبج وهم الضحاك، عجزوا عن الظعن فنزلوا بلاد الزاب واتخذوا بها المدن، وكان من بطون الأثبج كذلك لطيف الذين نزلوا بلاد الزاب أيضا، واتخذوا بها الآطام والمدن مثل الدوسن، وغَريبُوَا، وتهودة، وتنومة، وبادس، ومن بني قرة الأثابج بطون هي أولاد فارس، وأولاد عزيز، وأولاد ماضي، الذين استقروا بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة قاعدة الزاب، متصلين كذلك غربا إلى مواطن غمرة، وهم في جوار رياح وتحت أيديهم[27].

ومن بني سليم مَلَكَ الكُعوب ومِرداس ضواحي الجانب الشرقي كلها من قابس إلى مجالات الزاب وريغ، وأما الزاب فالجانب الغربي منه وقاعدته طولقة، فكان لأولاد محمد وأولاد سباع بن يحي بن من رياح الهلالية، والجانب الأوسط منه وقاعدته بسكرة، فكان لأولاد محمد وفي مجالاتهم، وأما الجانب الشرقي من الزاب وقاعدته بادس وتنومة، فهو لأولاد نابت رؤساء كرفة الأثابج، وليس هو من مجالات رياح[28].

إلى جانب ذلك يذكر الدكتور سريزيات (Seriziat) وبعد الدراسات التي قام بها سنة 1873 والتي تتعلق بمدينة بسكرة، فإنه يرى بأنّ ما تبقى من الوجود الروماني لجأ بعد مقتل عقبة بن نافع حوالي 682م إلى الجبال واختلط بالبربر، فنتج عنه هذا التمازج، غير أن دماء الرومانيين لا تزال تجري في عروق السكان الحاليين لبسكرة! وفي نفس السياق أشار إلى أن أصول سكان

25- تقع هذه المدينة بالقرب من بسكرة، وهي مدينة كبيرة قديمة أزلية عليها سور عظيم مبني بالحجر الجليل، وبها أرباض وبساتين، ولها نهر كبير ينصب إليها من جبل أوراس، وفي هذه المدينة استشهد عقبة بن نافع، وقبره معروف بها. مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تع: سعد زغلول عبد الحميد، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ص 174.

26- وهي مدينة في أول الصحراء جنوبي المغرب الأقصى بنيت سنة 140هـ، وهي مدينة سهلية أرضها سبخة، حولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة وبساتين كثيرة. ينظر: البكري، المصدر السابق، ص ص 226-227.

27- سعيد دحماني، المرجع السابق، ص ص 115-120.

28- سعيد دحماني، نفسه، ص ص 125-127.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

بسكرة مختلطة، يمكن تقسيمها إلى خمسة عناصر هي: العرب، والبربر، والمولدون، والغوارة، والقادمون من واد ريغ الذين يشبهون السود في البشرة والشعر والملامح[29].

ونرى أن هذه النظرية يثبتها إلى حدّ ما البكري، الذي يقول في سياق وصفه لمدينة بسكرة: «...سكانها المولدون، و حولها من قبائل البربر سدراتة وبنو مغراوة...»[30]، إذن يمكننا أن نستنتج أنّ بقايا الروم التي تحالفت مع كسيلة بقيت في بسكرة وما جاورها، فانصهرت في المجتمع البربري المتواجد ببسكرة آنذاك وتمازجت به، ومع توافد العرب الفاتحين، ثم العرب الهلاليون الذين استقروا بالمنطقة، فشهدت وكباقي بلاد المغرب الاسلامي علاقات مصاهرة وتمازج بين العرب والبربر، أدّت إلى ظهور فئة اجتماعية جديدة عرفت «بالمولّدين»، أي الذين لديهم أصل مشترك بين العرب والبربر أو حتى بقايا الروم، والذي أدّى في الأخير إلى تعريب المنطقة بشكل شبه كلّي، نتيجة لتأثير العرب واللسان العربي على البربر.

5-الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية ببسكرة:

تزودنا المصادر الجغرافية بنزر قليل من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والدينية ببسكرة، وإن لم تكن هذه المعلومات كافية إلّا أننا نستطيع من خلالها تصور ما كان عليه المجتمع البسكري في العصر الوسيط، فباعتبار بسكرة من المناطق الصحراوية، يمكننا تخيّل حياة القساوة وشظف العيش التي كان عليها سكانها، فقد وُصف سكان بسكرة بأنهم «فقراء»، غير أنهم مهتمون بالعلم وموصوفون بالأدب[31].

غير أن بسكرة عرفت ازدهارا اقتصاديا، ونهضة عمرانية وثقافية، خاصة مع بداية القرن الخامس للهجرة، وهذا ما نستشفّه من خلال المصادر، حيث يصفها البكري بالمدينة الكبيرة[32]، والادريسي بالحصن المنيع[33]، ونظرا لكبرها وحصانتها وتوفر الأمن بها، شهدت مدينة بسكرة تطورا في الجانب الاجتماعي والعلمي والثقافي، حيث يذكر البكري أن: «ببسكرة علم كثير، وأهلها على مذهب أهل المدينة»[34]، كما يصفها صاحب كتاب الاستبصار بأنها: «دار فقه وعلم،

29- بسكرة أسوار من الحضارة، الجزائر: منشورات وزارة الثقافة ، 2013.
30- البكري، المصدر السابق، ص 137.
31- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 138.
32- البكري، المصدر السابق، ص 136.
33- الادريسي، المصدر السابق، ص 264.
34- البكري، المصدر نفسه، ص 137.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

فيها العلماء»[35]، فمن خلال ما أورده الجغرافيان يمكننا أن نتصور الجو العلمي الذي كان يعيشه سكان بسكرة، خاصة وأنها وصفت بدار فقه وعلوم، ووصف العلم بها بالكثير، وبالأخص ما تعلق منه بالعلوم الدينية والمذهب المالكي، وبما أن سكانها على مذهب أهل المدينة وهو المذهب المالكي، فقد آثر البسكريون هذا المذهب على بقية المذاهب، شأنهم في ذلك شأن أغلب العامة في المغرب الأوسط[36].

إذن فقد أدى التطور والازدهار الاجتماعي والاقتصادي ببسكرة، إلى تطور الجانب العلمي والثقافي بالمدينة –دون أن نغفل دور الأمن في ذلك-، فنرى أن المدينة قد أخرجت مجموعة لا بأس بها من العلماء، أمثال أبو عبد الله الملشوني وابنه إسحاق[37]،

اللّذان ينسبان إلى إحدى قراها وهي ملشون[38]، وقد كانا من العلماء الأفذاذ يُحمل عنهما العلم[39]، كما يذكر ياقوت الحموي أنه ينسب إلى بسكرة أيضا العالم أبو القاسم يوسف بن علي، وهو أبو ذؤيب ابن خويلد البسكري[40]، الذي سافر إلى بلاد المشرق وسمع من جمع من العلماء هناك، كان يفهم في الكلام والنحو، كما كان له اختيار القراءة، وكان يدرس النحو[41].

كما نرى أن سكان بسكرة يؤمنون بالأساطير والكرامات، شأنهم في ذلك شأن أغلب الناس في العصر الوسيط، حيث يذكر البكري أنه في إحدى جبال بسكرة والمعروف بجبل زيقيزي، كهف به رجل قتيل لم يغيّره مرّ الزمان وتقادم الدهور، تبضّ جراحه دماءً كأنما قتل منذ يومين، وتخبر الكافة عن الكافة أنهم لا يعلمون متى قتل قدما، وقد نقله أهل تلك النواحي ودفنوه في

35- مجهول، المصدر السابق، ص 173.

36- محمد طمار، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص 196.

37- وهو إسحاق بن أبي عبد الله عبد الملك الملشوني (كان حيا سنة 226هـ/841م)، عارف بالتاريخ، مشارك في عدة علوم، من فقهاء المالكية، تعلم بقريته ملشون ثم بالقيروان، وجالس ابن سحنون وأخذ عنه، كان نديما لمحمد بن الأغلب سادس أمراء بني الأغلب (206-242هـ). انظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ج2، الجزائر: مركز الامام الثعالبي، 2011، ص 150.

38- ملشون: من قرى بسكرة من ناحية إفريقية القصوى، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 192.

39- البكري، المصدر السابق، ص 137.

40- وهو يوسف بن علي بن جبارة بن محمد أبو القاسم الهذلي البسكري المغربي، أبو القاسم النحوي المقرئ، نشأ في بسكرة، كان كثير الترحال في طلب القراءات المشهورة والشاذة، زار أصبهان وبغداد وسمع من نعيم الأصبهاني وغيره، كان رجلا من وجوه القراء ورؤوس الأفاضل، عالم بالقراءات كثير الروايات، مقدم في النحو والصرف، عينه نظام الملك مقرئا في مدرسته سنة 458هـ، فاستمر بها سنين كثيرة إلى أن مات. انظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 43، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، 1980، ص 43. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة، ج2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار الفكر، ط2، 1979، ص 359.

41- ياقوت الحموي، المصدر السابق، م5، ص 422.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

أفنيتهم تبركا به، ثم لم يلبثوا أن وجدوه في الكهف على حاله، ويذكر أنه يحدّث بذلك ثقات أهل تلك الناحية!؟[42]، ويزيد الحميري أن أبو عبد الله الملشوني الذي يسميه بأبي عبد الملك، هو الذي أخبر بأمر هذا الرجل القتيل، كما ذكر أنه من الحواريين، وأنه هناك قبل فتح أفريقية[43].

6-الوضع الاقتصادي:

تزخر منطقة بسكرة بالعديد من الموارد الطبيعية، خاصة الزراعية منها، فبالرغم من أنها من المناطق الصحراوية، إلا أنها تحتوي على سهول خصبة ومياه وفيرة، استغلها السكان في انتاج وتطوير المنتجات الفلاحية وعلى رأسها التمور، حيث يذكر الادريسي أن ببسكرة «من التمر كل غريبة وطريفة»[44]، حتى أنها أصبحت تعرف ببسكرة النخيل[45]، وذلك لكثرة النخيل بها، ويذكر صاحب كتاب الاستبصار أن بها غابة كبيرة كثيرة النخل والزيتون وجميع الثمار[46]، مقدارها ستة أميال فيها أجناس التمور، منها جنس يعرفونه بالكسبا وهو الصيحاني، يضرب به المثل لفضله على غيره، وجنس أبيض أملس كان عبيد الله المهدي يأمر عماله بالمنع من بيعه والتحظير عليه وبعث ما هنالك منه إليه، إضافة إلى أجناس أخرى كثيرة[47]، فتمور بسكرة وصلت إلى المهدية[48] ورقادة[49]، كما جلبت منها أصناف الزيتون والثمر إلى حاضرتي تونس وبجاية[50]، إضافة إلى أصناف النخيل والزيتون والثمر، يوجد ببسكرة جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل، حيث كان كذلك عبيد الله المهدي وبنيه يستعملون منه في أطعمتهم[51].

42- البكري، المصدر السابق، ص 137.
43- الحميري، المصدر السابق، ص 114.
44- الادريسي، المصدر السابق، ص 264.
45- ياقوت الحموي، المصدر السابق، م1، ص 422.
46- مجهول، الاستبصار، ص 173.
47- البكري، المصدر السابق، ص ص 136-137.
48- مدينة محدثة بساحل افريقية، بناها عبيد الله المهدي الشيعي، وسماها المهدية ونسبها لنفسه سنة 300هـ، وهي مدينة حسنة قد أحاط بها البحر من جهاتها الثلاث، وفيها أسواق وحمامات، تقصدها السفن من المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم. الحميري، المصدر السابق، ص ص 561-562.
49-وهي بلدة بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام، بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، وهي من أطيب مدن أفريقية هواء وأرقها تربة وأكثرها بساتينا. ياقوت الحموي، المصدر نفسه، م3، ص ص 55-56.
50- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 126.
51- الحميري، المصدر السابق، ص 114.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

إذن فمن بسكرة كان يُتجهز بالتمور والزيتون وأصناف الثمر إلى سائر الأقطار، وكذلك توفرها على معدن الملح الذي كانت قيمته تضاهي قيمة الذهب «وله غلة عظيمة» في العصر الوسيط، وذلك لحاجة الناس إليه، كذلك وقوع بسكرة في الطريق التجاري الرابط بين القيروان وقلعة أبي طويل (قلعة بني حماد)[52]، وفي الطريق الرابط بين المسيلة وأفريقية[53]، وفي الطريق الداخلي الممتد من بلاد الجريد إلى تلمسان[54] وصولا إلى مراكش[55]، جعلها إحدى المحطات التجارية الهامة للتجار والقوافل، مما أدّى إلى ازدهار النشاط الاقتصادي بها، كما لا يمكننا إغفال مساهمة العامل الجغرافي في تطوير المنتوجات وزيادة الانتاج، والعامل الاجتماعي أيضا، فبسكرة تجمع بين الريف والمدينة، وقد أدّى هذا التباين إلى ازدياد التجارة حيويةً، فالمجتمع الريفي قد اختص بالإنتاج الغذائي، بينما اختص مجتمع المدينة بالإنتاج الحرفي، مما خلق تكاملا تجاريا –إن صح القول- بين سكان الريف والمدينة[56].

خاتمة:

إن الموقع الجغرافي المتميز لبسكرة، واحتوائها على موارد وثروات طبيعية هامة، جعلها تستقطب عبر الأزمنة العديد من القبائل المختلفة كالبربر والعرب، حيث خلقت تمازجا حضاريا أثرى السجل التاريخي والحضاري للمنطقة، مما جعلها محل اهتمام الجغرافيين والمؤرخين، الذين وصفوا جغرافيتها وعمرانها والحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية بها، وكان من بينهم من كتب عنها بشغف، مبديا إعجابه بها وبسكانها، كما كانت تجارتها في العصر الوسيط رائجة، وخيراتها وفيرة، ما جعلها من المدن الهامة لدى الفاطميين، الذين كثيرا ما كانوا يستنزفون ثرواتها، ويتزودون منها بشتى أنواع التمور والحبوب والثمر، بل ويحظرون عليها لأنفسهم، لكن وبالرغم من ذلك واصلت بسكرة نموها وتطورها وازدهارها خاصة في القرنين الخامس و السادس

52- البكري، المصدر السابق، ص ص 134، 255.

53- أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1992، ص 87.

54- من أكبر وأشهر مدن المغرب الأوسط، وهي مدينة مسورة في سفح جبل شجره الجوز، من المدن الأولية القديمة، ولها أنهار جارية وسور منيع وغلاتها عظيمة، ومزارعها كثيرة، ومدينة تلمسان هي قفل بلاد المغرب الأوسط اتجاه الغرب. البكري، المصدر السابق، ص 164. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 88. الادريسي، المصدر السابق، ص 250.

55- لطيفة بشاري، العلاقات التجارية للمغرب الأوسط في عهد إمارة بني عبد الواد من القرن (7-10ه/13-16م)، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، ط1، 2011، ص 70.

56- جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3 و4 الهجريين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص ص 125، 128.

للهجرة، وما ساعدها على ذلك هو مرور العديد من الطرق التجارية بجوارها. ولا يزال حقل دراسة بسكرة خصبا، خاصة وأن للمنطقة تاريخ عريق من شأنه أن يفسح المجال للدراسات التاريخية والأثرية والأنثربولوجية، وبالأخص ما تعلق بالأجناس التي استوطنت بها، ولاتزال تسكنها، وكذا الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية، والخيرات التي تزخر بها.

قائمة المصادر والمراجع:

1-المصادر:

01-ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن: مطبع بريل، 1302.

02-ابن خلدون عبد الرحمن ، ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، مر: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 2000.

03-أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، تقويم البلدان، بيروت: دار صادر.

04-البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية و المغرب، تق وتع: حماه الله ولد السالم، بيروت: دار الكتب العلمية.

05-الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، م1، بيروت: دار صادر، 1977.

06-الحميري محمد بن عبد المنعم ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ط2، 1984.

07-السيوطي جلال الدين عبد الرحمن ، بغية الوعاة في طبقات اللغوين و النحاة، ج2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار الفكر، ط2، 1979.

08-الشريف الادريسي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بور سعيد-مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

09-الفاسي محمد بن الحسن الوزان ، وصف إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي و آخرون، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط2، 1983

10-كربخال مارمول ، إفريقيا، ج3، تر: محمد حجي و آخرون، الرباط-المغرب: دار المعرفة، 1989.

11-مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تع: سعد زغلول عبد الحميد، بغداد-العراق: دار الشؤون الثقافية العامة.

12-المغربي أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد ، الجغرافيا، تح و تع: إسماعيل العربي، بيروت: المكتب التجاري للطباع و النشر و التوزيع، ط1، 1970.

13-النصيبي أبو القاسم بن حوقل ، صورة الأرض، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1992.

2-المراجع:

14-«بسكرة أسوار من حضارة»، الجزائر: منشورات وزارة الثقافة، 2013.

15-العربي إسماعيل ، المدن المغربية، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

16-بشاري لطيفة، العلاقات التجارية للمغرب الأوسط في عهد إمارة بني عبد الواد من القرن (7-10هـ/13-16م)، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، ط1، 2011.

17-بن قربة صالح ، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954،

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

18-بوخالفة عزي، المهاجرون الهلاليون بين أحكام المؤرخين و شظايا الذاكرة الشعبية، الجزائر: منشورات وزارة الثقافة، ط1، 2013.
19-بومعزة عبد القادر ، بسكرة في عيون الرحالة الغربيين، ج1، بسكرة-الجزائر: دار علي بن زيد، ط1، 2016.
20-دحماني سعيد، تاريخ الجزائر في القرون الوسطى من كتاب العبر، عنابة-الجزائر: منشورات بونة للبحوث والدراسات، 2011.
21-طمار محمد، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
22-نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، ، ص 43، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، 1980.
23-نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، ج2، الجزائر، الجزائر: مركز الامام الثعالبي، 2011.
24-يوسف جودت عبد الكريم ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3 و 4 الهجريين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.